

المحاضرة الثالثة

أوضاع بلدان المغرب أواخر القرن 15 وأوائل السادس عشر.

1- المغرب الأوسط (الجزائر)

أولا: الأوضاع في المغرب الأوسط (الجزائر):

لقد تميزت الأوضاع في الجزائر ، خلال القرن الخامس عشر بالاضطراب السياسية والاجتماعية ، وبالغموض أحيانا . فقد كانت الحدود السياسية للبلاد في ذلك العهد غير ثابتة، فكان جزءا كبيرا من شرق الجزائر الحالية وجنوبها الشرقي تحت نفوذ الدولة الحفصية ، الذي كان يشمل قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت. وكانت حدود الدولة الزيانية تمتد من بجاية والزاب وورقلة شرقا إلى نهر ملوية غربا. لقد ساهمت في تلك الاضطرابات عوامل عديدة ، نذكر منها ضعف الملوك ، والتطاحن العائلي في الأسر الحاكمة سواء في تلمسان أو في بجاية ، من أجل الفوز بالحكم . فكان الخصام بينهم قد دفع ببعضهم إلى الاستجارة الأنصار لمحاربة السلطان القائم ، فكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم ، كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم استغلت بعض القبائل - التي كانت تحضى بشبه استقلال في أراضيها - تلك الأوضاع ، فكلما شعرت بضعف الملوك ؛ زادت من حدة عصيانها وتمردتها وتحديدها للسلطة القائمة ، فلم يكن يعينها سوى مصالح القبيلة. إلى جانب ذلك ، كان المغرب الأوسط واقعا في الوسط بين تهديدات المرينيين من الغرب، والحفصيين من الشرق. سعت كل بسط نفوذها على هاته المنطقة.

فعندما تعرضت الجزائر للاحتلال الأسبان في بداية القرن السادس عشر ؛ كانت مجزأة إلى حوالي خمسة عشر كيانا، تهيمن عليها القبائل . فكانت قبيلتا سويد وبني عامر تسيطران على معظم سهول وهران ، وكان آل المقراني يهيمنون على منطق القبائل الصغرى (وادي بجاية) حيث كانت قاعدة إمارتهم قلعة بني عباس ، تحولت إلى مجانة والقبائل الكبرى ، تحت تصرف آل ابن القاضي ، ومقر إمارتهم جبل كوكو . أما كدينة الجزائر وسهول متيجة فكانت منذ القرن الرابع عشر تحت سلطة الثعالبة تتعرض لنفوذ الزيانيين تارة ، ولملوك بني حفص تارة أخرى ، إلى أن استقلت بأمرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فأصبحت أشبه ما يكون بجمهورية يديرها مجلسا مؤلفا من أعيان المدينة تحت سلطة الثعالبة ، كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحد رجال حكمها (3). وكانت كل من قبائل الدواودة والأحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك.

لقد تعرض كثير من الفقهاء إلى سلوكات هؤلاء القبائل وتصرفاتهم مع الحكام، لعل من أشهرهم صاحب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة عند التعرض لبعض الأسئلة المتعلقة بتمرد تلك القبائل حيث قال: ((وسئل الحفيد سيدي محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خدما للسلطان ، وتارة يكونون

محالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر، وبني سويد يعتمد أحدهم إلى تولية قاض في وطنه (أي إقطاعه) بلا أمر الإمام فيقض، هل تصح توليته وتنفيذ أحكامه)).

لقد أدى ذلك الوضع إلى انتشار عقيدة المرابطية والزوايا والحركة الصوفية ، فقد أدى الضعف السياسي بالناس إلى الإقبال على الانخراط في الزوايا والرباطات يتناقلون أخبار الأولياء وكراتهم . كما كان هؤلاء المتصوفة يحكمون التنافس في قضاياهم . من أهم الزوايا التي تكونت بالجزائر في ذلك العهد ، زاوية الثعالبي في مدينة الجزائر ، وزاوية الملارية في قسنطينة ، وزاوية السنوسي بتلمسان ، وضريح محمد الهواري في وهران . وكان لتلك الزوايا دورا في النشاط الديني والسياسي . وقد اعتبر الصليبيون الجدد الذين ظهروا في شبه جزيرة أيبيريا ، أن تلك الوضعية المتدهورة التي عرفت البلاد المغربية بما فيها أرض الجزائر ، فرصة مناسبة لتوسيع نطاق نفوذهم.

للتعرف أكثر على الأوضاع في المغرب الأوسط يجدر بنا التطرق إلى أكبر الوحدات السياسية التي كانت قائمة خلال القرن 15 ، وهما الدولة الزيانية ، ومملكة بجاية.

1 - الدولة الزيانية بين الخلافات الداخلية والتهديدات المرينية والحفصية :

كانت الدولة الزيانية خلال القرن الخامس عشر تتميز بالتناحر بين أفراد الأسرة الحاكمة ، أو وقوعها تحت التأثيرات المرينية أو الحفصية نظرا لموقعها الجغرافي بين المملكتين السابقتين . فقد ووجد ملوك تونس وكذلك ملوك بني مرين في تلمسان الظروف المناسبة لزرع الفتن ، فقد اكتفوا في بعض الأحيان بتأييد الطامعين من أفراد العائلة الحاكمة في العرش ، فيدفعونهم إلى الثورة ضد من هو في العرش . فعلى سبيل المثال استجار أبو زيان محمد بحكومة تونس ، فجاء حاكم تونس مغيرا على مدينة الجزائر ومتيجة وتنس ، ومليانة وغيرها فاحتلها في سنة 1438 . وبهذه الصفة وغيرها كان بعض ملوك تلمسان في القرن الخامس عشر ، وحتى بقية عمر الدولة خلال القرن السادس عشر لا يبقون في الحكم سوى مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر في بعض الأحيان ، وقليل منهم من حكم لسنوات عديدة.

وإذا كان أبو العباس العاقل قد استمر في الملك مدة قياسية بالمقارنة مع من سبقه من الملوك أو الذين جاءوا بعده ، فإن عهده هو الآخر لم ينج من الفتن التي أثارتها بعض القبائل أو بعض أفراد الأسرة المالكة ، نذكر منها الثورة التي قام بها أحمد بن الناصر بن المولى أبو حمو خلال سنة 1446 ، وانتهت حركته بالقتل . وقام أمير آخر وهو محمد بن محمد بن أبي ثابت الملقب بالمتوكل على الله بثورة أخرى ، وتمكن من الإطاحة بعم أبيه الملك أبو العباس أحمد ، سنة 866 هجرية / الموافق لسنة 1462 م . وبعد ذلك أبعد إلى الأندلس حيث سعى هناك إلى تكوين جيش عاد به إلى تلمسان ، فحاصرها لمدة أسبوعين ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، فقتل في معركة وقعت بينه وبين جيش المتوكل في أوت سنة 1463 .

غير أن أهم الأعمال التي قام بها المتوكل هم توحيد كلمة الرعية ، بعد أن أخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين له ، كما غزت في عهده سفنه السواحل الإيطالية والأسبانية انتقاما لما حل بمسلمي صقلية والأندلس . كما عمل على حماية ثغر هنين من اعتداءات النصارى ، وسعى المتوكل إلى المحافظة على استقلال مملكته ، ففي سنة 1463 أعلن عن رفضه الدعوة للحفصيين وطرد ولاتهم من أعمالها . لكن تواطؤ بعض القبائل مثل بني سويد

مع الحفصيين جعلت السلطان الحفصي يتحرك بجيوشه إلى تلمسان ، فحاصرها وضرب أسوارها ، فلم يجد التوكل بدا من تجديد البيعة للحفصيين ، عندئذ رجع الملك الحفصي إلى تونس وذلك في سنة 1467 . كان ذلك آخر تدخل حفصي في مملكة بني زيان.

وبعد المتوكل عرفت الدولة الزيانية فترة من الضعف ، حيث تجددت الفتن العائلية على الحكم ، فبعد وفاة المتوكل سنة 1485 ، خلفه ابنه أبو تاشفين ، وبعد أربعين سنة من الحكم خلعه أخوه أبو عبد الله محمد الثابتي ، الذي تميز عهده بالاضطرابات ، حيث أخذت بعض المدن تستقل بأمورها مثل تنس والجزائر ، كما أخذت بعض القبائل تنظم إلى أعدائه كلما هاجموا أراضي المملكة.

ولعل من أهم الأخطار التي تعرضت لها المملكة هو التحرش الأسباني الذي شرع. فبعد أن استولى الأسبان على مملكة غرناطة في سنة 1492 ، تزايد عدد المهاجرين الأندلسيين إلى السواحل المغرب الأوسط ، كان من بينهم ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، الذي استقبله الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي بحفاوة في تلمسان .

2 - مملكة بجاية (الحفصية) :

إن أول ما وقع من الأراضي الجزائرية تحت سلطة الدولة الحفصية ، ولايتا قسنطينة وبجاية ، عندما زحف عليهما أبو زكرياء الأول الحفصي سنة 1230م ، . ونظرا للأهمية الاستراتيجية لشغل بجاية ، عين السلطان الحفصي ابنه الأمير أبو يحيى أميرا عليها ، وعين ابن النعمان من هنتاتة على قسنطينة ومع مرور السنوات أصبحت بجاية تلعب دورا أساسيا في تدعيم ومساندة حاضرة الحفصيين في توسعاتهم نحو الجهات الغربية ، أو لشد أزر تونس أما التهديدات الصليبية .

وقد امتد نفوذ الحفصيين في المناطق الشرقية للجزائر حتى أصبح يضم إلى جانب بجاية وقسنطينة ؛ كل من عنابة وبسكرة وتقرت ، فأصبحت بجاية تعد عاصمة هذا الإقليم . غير أن الاضطرابات التي حدثت بين الأمراء ، آل بها إلى الانسلاخ عن تونس ، ففي سنة 1287 انقسمت الدولة الحفصية على نفسها ، حيث انتصب أبو حفص بن أبي زكريا بحاضرة تونس ، واستقل بالناحية الغربية وعاصمتها بجاية أبو زكريا بن أبي اسحاق ، وذلك للتنافس الذي كان بين الرجلين ، لتصبح مملكة مستقلة.

وقد عرفت بجاية في بعض أوقاتها استقرارا وازدهارا أدى إلى توسيع رقعتها الجغرافية ، حيث امتدت حدودها حتى منطقة الجريد التونسي ، وكان ذلك بسبب تحالف القبائل العربية مع أمير بجاية ، مثل العمل أقدم عليه الزاب ، المنصور بن مزني عندما أعلن انفصاله عن السلطة الحفصية في تونس سنة 1294 وانضمامه بإقليمه الواسع إلى أمير بجاية أبي زكريا . ولما أصبحت تلك القبائل تشكل خطرا على استقرار الأوضاع في الأقاليم الشرقية للمملكة الحفصية ، كانت في بعض الأحيان بإيعاز من صاحب بجاية ، لجأ السلطان الحفصي أبو عصيدة ، إلى الاستنجد ببني مريين من أجل التصديق على البجائيين . عندئذ قام السلطان أبو يعقوب المريني بفرض حصار على بجاية لعدة أيام ، لكنه لم يتمكن من إخضاعها لنفوذه.

عرف الحفصيون خلال هذا القرن أزمت عديدة كان مصدرها تضافر جهود القبائل العربية مثل بني سالم والذواودة وعبد الوادي . فقد كان أصحاب تلمسان يأملون في ضم بجاية إلى سلطتهم ، وهذا ما جعل السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر يستغيث ببني مرين ، فجهز السلطان أبو الحسن المريني أسطولا وبعث به إلى حليفه ببجاية ونهض مع قوات أبي يحيى لغزو مدينة تيكاللت . فاستولى عليها ثم خربها . ولما توفي أبو يحيى سنة 1346م تأزمت الأمور الداخلية من جديد ، جعلت أبو حسن المريني ، يغزو قسنطينة وبجاية ثم دخل تونس في السنة الموالية (1347) ، لكن سلطته عليهم لم تستمر طويلا ، إذ تألبت عليه القبائل وهزمت في القيروان سنة 1384.

وكان لاستمرار الخلافات العائلية ، سببا في قيام المرينيين من جديد بغزو قسنطينة وعنابة سنة 1357 ، لكن نفوذهم بها لم يدم طويلا . وفي عهد السلطان أبي العباس الذي كان أميرا على قسنطينة، وقبل دخوله إلى تونس سنة 1370 تمكن من أخذ بجاية وتدلّس وعنابة سنة 1366 وذلك بإعانة من الذواودة .

وتوجه السلطان أبو فارس الحفصي (1394 – 1433) نحو المناطق الغربية للمملكة، الواقعة إلى الغرب من وادي ريغ التي كانت خارجة عن سلطة الحفصيين بما في ذلك بسكرة التي كانت تحت سلطة أمراء عائلة بني مزني ، فاحتلها وكذلك الواحات المجاورة لها وذلك في سنة 1401. وفي نهاية عام 1408 ، وبعد هروب الأمير عبد الله من عنابة ذهب لبيح له عن ملجأ في المغرب ، وعاد من هناك على رأس قوات مرينية ، دعمت في الطريق ببعض رجال القبائل العربية ، ثم احتل بجاية . إثر ذلك خرج إليه السلطان الحفصي وتمكن من قتله إثر معركة غير متكافئة واحتل بجاية مرة أخرى في سنة 1409 ثم عين عليها ابن أخيه أبو العباس.

لقد ظلت بجاية والأقاليم التابعة لها تحت السلطة الحفصية في تونس من سنة 1366 إلى غاية سنة 1435 ، وما أن تولى أبو عمر عثمان الحكم سنة 1435 حتى أعلن عمه أبو الحسن حاكم بجاية استقلاله ، وكان مدعوما من طرف شيوخ أولاد أبو الليل وعلى رأسهم عيسى بن محمد وكذلك من طرف الذواودة . ففي بداية سنة 1436 توجه صاحب بجاية إلى قسنطينة بهدف احتلالها فحاصرها لمدة شهر ، غير أن حاميتها أجبرته على رفع الحصار والتوجه إلى تونس العاصمة . ولما علم أبو عمر بالأمر خرج إليه على رأس قوات معتبرة وتمكن من هزيمه في معركة وادي سيراو وذلك في 6 أكتوبر 1436 ، ففر أبو الحسن مع بعض فرسانه إلى بجاية ، بعد أن انفض عنه أولاد أبو الليل) .

لقد ظن أبو عمر أن انفضاض الأعراب من حول عمه يسهل له مهاجمة بجاية واحتلالها ، فخرج إليها في سنة 1437 ، لكنه لم يتمكن من بلوغها بسبب اصطدامه بأنصار أبي الحسن الذين اعترضوا طريقه ، وأضعفوا قواته ، عندئذ اضطر إلى العودة إلى تونس. وبعد سنتين قام بحملة جديدة على بجاية ، فدخلها بعد أن كان أبو الحسن قد أخلاها ، فعفى عن سكانها وعين على رأسها ابن عمه عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد ، ثم قفل راجعا إلى تونس. ولم يكد السلطان أن يدخل تونس حتى ظهر أبو الحسن من جديد في جبال القبائل ، فلم يتوقف عن مضايقة حاكم بجاية واستدراج حاكمها إلى خارج المدينة ، وفي إحدى خرجاته

قتل من طرف بني سيلين في ماي 1442 ، وخلفه في الحكم أخاه أبو محمد عبد المالك . وظلت الأوضاع غير مستقرة في بجاية ونواحيها ، فقد بقي أبو الحسن يتحين الفرص لاسترجاع بجاية إلى أن تمكن من دخولها في مارس 1446 حيث هاجمها وقتل قائدها أحمد بن بشير ، لكنه لم يستقر بها سوى ثلاثة أسابيع فقط ، حيث خرج إليه أبو عثمان من جديد إلى جانب القائد نبيل من قسنطينة ، وتمكن هذا الأخير من دخول بجاية ، بعد أن غادرها أبو الحسن واعتصم في الجبال ، وعين الملك الحفصي القائد محمد بن فرح على بجاية .

وقامت في توغرت ثورة أخرى تزعمها أمير من عائلة بني جلاب يدعى يوسف بن حسن الذي أعلن استقلاله ، فخرج إليه السلطان في سنة 1449 ، واقتحم المدينة وبعد حصار طويل أسر الأمير ، وعين على رأس قيادة منطقة وادي ريغ أحد القادة الذي كان مواليا لتونس.

وفي سنة 1452 أعاد أبو الحسن حصار بجاية ، وعندما وصلت النجدة من ابن عمر عثمان إلى بجاية ، تأمر عليه بنو سيلين ولا سيما سعيد بن عبد الرحمن بن صخر وصهره محمد بن سعيد ، فألقيا عليه القبض عندما نزل عندهما ، ثم اتصلا بصاحب قسنطينة ، الذي أرسل بدوره الخبر إلى السلطان ، فاستبشر خيرا ، وبعث جيشا لنقله إليه ، كان يقوده شيخ الموحدين محمد بن أبي هلال ، وفي طريقهم به إلى تونس قتلوه بحجة خوفهم من أن يفلته العرب من أيديهم ، وأرسل رأسه إلى السلطان وبذلك انتهت ثورة أبو الحسن التي استمرت لمدة طويلة. بعدها عين القائد منصور حاكما على بجاية ، بينما خلفه ابنه فرح على رأس قسنطينة ، غير أن أهالي المدينة حاولوا التمرد على القائد الجديد ، وتطلعوا إلى مبايعة إبي بكر بن عبد المؤمن الحفصي ، فأمر السلطان بإلقاء القبض على هذا الأخير والذي تم قرب الميلة ، بعدئذ عين على رأس بجاية أبا فارس عبد العزيز .

لقد ظلت المنطقة مسرحا للعديد من الاضطرابات سواء في بجاية أو قسنطينة أوفي توغرت، وكذلك ورقلة ووادي ميزاب. ولما أحس أبو عمر بميل سكان تلك الجهات إلى التمرد، خرج في صيف سنة 1465 في حملة إلى وادي ريغ، فاحتل توغرت، وهدم تحصيناتها، ثم دخل إلى ورقلة ، حيث تلقى التأييد من قبل سكان الصحراء بما. غير أن الضعف الذي أصاب الحفصيين خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، جعل القبائل تلعب دورا في قيادة الأمور في الجهات التي كانت تابعة لها . ففي قسنطينة مثلا إذا كان ممثل السلطان هو المسؤول الرسمي؛ فإنه كان للذواودة وإلى جانبهم أولاد سلامة، وعائلات أخرى مثل عبد المؤمن، وبني باديس، وابن الفقون، كلمة في تسيير شؤون المنطقة.